أمّتى .. أمّتى

٢٦ - يقول رب العزة سبحانه:

«يَا جِبْرِيلُ. اذْهَبْ إِلَى مُحَمَّدٍ
فَقُلْ: إِنَّا سَنُرْضِيكَ
فِى أُمَّتِكَ ، وَلاَ نَسُوءُكَ(١)»(٢)

يقول الحق سبحانه:

﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ (١٢٨)﴾ [التوبة]

لقد جاءكم أيها المؤمنون رسول منكم ، عربى ، ومن قريش ، يُبلِّغكم رسالة الله تعالى ، يحرص عليكم كيلا تقعوا فى مشقّة ، أو تعيشوا فى ضَنْك الكفر ، حريص على أن تكونوا من المهتدين.

---

(١) قال النووى فى شرحه لهذا الحديث: «قال صاحب التحرير: هو تأكيد للمعنى . أى : لا نحزنك ؛ لأن الإرضاء قد يحصل فى حق البعض بالعفو عنهم ، ويدخل الباقى النار. فقال تعالى: نرضيك ولا ندخل عليك حزناً ، بل ننجى الجميع . والله أعلم».

(٢) أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٠٢) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص أن النبى ﷺ تلا قول الله عز وجل فى إبراهيم ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيراً مِّنَ النَّاسِ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُ مِنِّى وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٣٦)﴾ [إبراهيم] . وقال عيسى عليه السلام: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١١٨)﴾ [المائدة] فرفع يديه وقال: اللهم أمتى أمتى . وبكى . فقال الله عز وجل : يا جبريل اذهب إلى محمد ـ وربك أعلم ـ فسله : ما يبكيك ؟ فأتاه جبريل عليه الصلاة والسلام فسأله فأخبره رسول الله ﷺ بما قال ـ وهو أعلم ـ فقال الله : يا جبريل اذهب إلى محمد فقل : « إنا سنرضيك فى أمتك ولا نسوءك » .

فهو ﷺ مُحبّ لكم ، يشقُّ عليه ويُتعبه ما يشقّ عليكم ويُتعبكم ، ولذلك كان رسول الله ﷺ مشغولاً بأمته .

وقوله سبحانه :

﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ .. (١٢٨)﴾ [التوبة]

فالعزة تأتى لامتناع شيء إمّا لقدرته ، أو عزيز بمعنى نادر أو يستحيل . والعزيز هو الأمر الذى يعزّ على الناس أنْ يتداولوه . فيقال: عَزَّ علىّ أنْ أصل إلى قمة الجبل .

﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ (١٢٨)﴾ [التوبة]

أى: شاقّ عليه أنْ يُعنتكم بحكم ، فَقَلْبه رحيم بِكُم ، وهو لا يأتى لكم بالأحكام لكىّ تشقّ عليكم ، بل تنزل الأحكام من الله لمصلحتكم ، فهو نفسه يعزّ عليه أنْ يشقَّ عليكم.

ولذلك قال النبى ﷺ :

« مَثَلى كَمَثَلِ رجل استوقد ناراً ، فلما أضاءت ما حولها جعل الفَرَاش وهذه الدَّواب التى فى النار يقعنَ فيها ، وجعل يحجزهن ويغلبْنَهُ فيتقحَّمنَ(١) فيها. قال: فذلكم مَثَلى ومَثلكم أنا آخذٌ بِحَجُزِكم(٢) عن النار .

(١) التقحم: هو الإقدام والوقوع فى الأمور الشاقة من غير تثبت.

(٢) الحجز : جمع حجزة ، وهى معقد الإزار والسراويل. قال النووى فى شرحه (١٥/ ٥٥): «شبَّه ﷺ تساقط الجاهلين والمخالفين بمعاصيهم وشهواتهم فى نار الآخرة ، وحرصهم على الوقوع فى ذلك مع منعه إياهم وقبضه على مواضع المنع منهم بتساقط الفراش فى نار الدنيا لهواه وضعف تمييزه ، وكلاهما حريص على هلاك نفسه ، ساعٍ فى ذلك لجهله ».

هَلُمّ عن النار. هَلُمّ عن النار . فتغلبونى تقحَّمون فيها »[1].

فإذا كان الرسول ﷺ صفته أنه من أنفُسكم ، أو من أنفَسكم ، أو يحبكم حُباً يعزُّ عليه أنْ تكونوا فى مشقة. إذن: فخذوا توجيهاته بحُسْن الظن وبحُسْن الرأى فيها .

وذلك هو القانون التربوى الذى يجب أن يسود الدنيا كلها ، فقد يقسو والد على ولده بأوامر ونَوَاهٍ : « افعل كذا » و« لا تفعل كذا » ، لا تذهب إلى المكان الفلانى، ولا تجلس إلى فلان ، ولا تسهر خارج المنزل بعد الساعة كذا.

كل هذه أوامر قد تشقُّ على الولد ، فنقول له :

مشقّة التكليف مِمَّنْ صدرتْ ؟

لقد صدرتْ من أبيك الذى تعرف حُبَّه لك ، والذى يشقى ليوفر لك بناء المستقبل ، ويتعب لترتاح أنت ، فكيف تسمح لنفسك أنْ تصادق صعاليك يُخرِجونك عن طاعة أبيك إلى اللهو وإلى الشرِّ .

وانظر إلى والدك الذى تحمّل المشقة حتى لا تتحمل أنت المشقة ، ويشق عليه أنْ تتعب فهو أَوْلَى بأنْ تسمع كلامه.

ورسول الله ﷺ عزيز عليه مشقتكم .

---

(١) حديث متفق عليه. أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٤٨٣) وكذا مسلم فى صحيحه (٢٢٨٤) من حديث أبى هريرة رضي الله عنه .

والمشقات أنواع ، مشقات فى الدنيا تتمثل فى التكاليف التى يتطلبها الإيمان ، ولكنها تمنع مشقاتٍ أخلدَ فى الآخرة .

لذلك فالرسول ﷺ يحزن أن ينالكم فى الآخرة تعبٌ ، وتَعَبُ الدنيا موقوت وينتهى ، لكن تعب الآخرة هو الذى يُرهِق حقاً ويُتعِب[1] .

ولذلك يقول الحق سبحانه فى تصوير هذه المسألة :

﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ[2] نَّفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَـٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا[3] ۝٦﴾ [الكهف]

لماذا؟ لأنك تعرف يا محمد أنهم إن لم ينتهوا فسوف يجدون العنت كله فى الآخرة ، أو أن مشقة الآخرة هى التى يجب أن نتلافاها ، وأن نتحمل المشقات الزائلة العرضية التى تُورِد ثماراً .

فنحن قد نجد الرجل يقول لابنه مثلاً : اخرج إلى الحقل ، واحمل السِّباخ فوق الحمار واحْرُثْ وارْو ، كُلُّ هذه مشقّات ستجد لذّتَها يوم الحصاد ، وتعطيك الأرض من خير الله كذا إردب قمحًا أو غير ذلك.

---

(١) قال أبو حامد الغزالى : « التمثيل وقع على صورة الإكباب على الشهوات من الإنسان بإكباب الفراش على التهافت فى النار ، ولكن جهل الآدمى أشد من جهل الفراش ، لأنها باغترارها بظواهر الضوء إذا احترقت انتهى عذابها فى الحال ، والآدمى يبقى فى النار مدة طويلة أو أبدًا » . أورده ابن حجر العسقلانى فى فتح البارى (٦/ ٤٦٤).

(٢) بخع نفسه : قتلها غيظاً أو غماً . وقوله تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ ۝٦﴾ [الكهف] قال الفراء : أى : مخرج نفسك وقاتل نفسك. (لسان العرب ـ مادة : بخع).

(٣) أسفاً : حزناً وغضباً على كفرهم . (تفسير القرطبى ٥/ ٤٠٨٢) .

ولو ترك الأب ابنه لكسله فهذه هى المشكلة الأكبر ، أما حَثُّ الأب لابنه على العمل فهو دفع لمغبّة الضياع .

وقد يأخذ الأب ابنه للطبيب ، ويجد الطبيب مشغولاً ، ويرجوه الأب أنْ يُجرى للابن جراحة تُنجيه وتنقذه من خطر رغم أن الأب يعلم أن الطبيب سيستخدم مع ابنه أدوات جراحية كالمشارط وغيرها .

ولكن ، ليعلم الابن أن هذا المشرط سيمسُّ أباك قبل أن يمسَّك .

وعلى ذلك ، إذا أُمرتَ بتكليفٍ شاقٍّ فانظر مَنْ أمرك ؟

أهو ممَّنْ تعزّ عليه ، وممَّنْ تحبه ، وممَّن يريد لك الخير ؟

إنْ كان الأمر كذلك ، فعليك أنْ تقبل ولا تُسِىء الظن ، ولا تُرهق مَنْ يحبك .

واعلم أن والدك حين يصرفك عن أصدقاء السوء ـ مثلاً ـ فهو يرد عنك مصارف الشر ، لأنك إن اجتهدت فى عملك فسوف تحصد النتيجة الطيبة .

أما إن اتجهت إلى مصارف الشر فسوف تُشرد وتجوع ، وسوف تدقُّ باب بيت أبيك ، وعندئذ ستسمع مثلاً عاميًا يلخص الحكمة التى تقول «مَنْ يأكل لُقْمتى فليسمع كلمتى».

والحق سبحانه يُسَرِّى عن رسوله ﷺ ، فيقول :

﴿ وَلَا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِى الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا يُرِيدُ اللَّهُ أَلاَّ يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِى الآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٧٦) ﴾ [آل عمران]

فالرسول ﷺ كان يُحزنه أن يُسارع البعض إلى الكفر ، فهل رسول الله ﷺ لا يعلم أنه إنما جاء مُبلِّغًا فقط؟

إنه يعلم ، ولكنه ﷺ كان يحرص على أنْ يؤمن الناس جميعًا ؛ ليذوقوا حلاوة ما جاء به ، هذا الحرص هو الذى يدفع الحزن إلى قلب الرسول ﷺ .

وعندما يرى واحدًا لا يذوق حلاوة المنهج ، فالرسول يأمل أن يذوق الناسُ كلهم حلاوة الإيمان ، لأنه ﷺ رءوف رحيم بالمؤمنين ، بل وبالناس جميعًا [1] .

يقول الحق سبحانه:

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ (١٠٧) ﴾ [الأنبياء]

ودليلُ ذلك أنه ﷺ عندما جاءه التخيير ، وناداه جبريل عليه السلام ، وقال:

«إن الله قد سمع قَوْل قومك لك وما رَدُّوا عليك ، وقد بعث إليك مَلك الجبال لتأمره بما شئتَ فيهم . قال : فنادانى ملك الجبال وسلَّم علىّ ثم قال: يا محمد. إن الله قد بعثنى إليك ، وأنا مَلَك الجبال لتأمرنى بأمرك فما شئتَ؟

(١) أخرج الإمام أحمد فى مسنده (١/ ٢٤٢) والحاكم فى مستدركه (١ / ٥٣) ، (٤ / ٤٠) والطبرانى فى المعجم الكبير (١٢ / ١٥٢) عن ابن عباس رضي الله عنهما قال قالت قريش للنبى ﷺ : ادع لنا ربك أن يجعل لنا الصفا ذهبًا ونؤمن بك. قال: وتفعلون؟ قالوا: نعم. قال: فدعا. فأتاه جبريل فقال: إن ربك يقرأ عليك السلام ويقول لك: إن شئت أصبح لهم الصفا ذهبًا فمن كفر منهم بعد ذلك عذبته عذابًا لا أعذبه أحدًا من العالمين، وإن شئت فتحت لهم أبواب التوبة والرحمة ، فقال: «بل باب التوبة والرحمة».

إن شئتَ أُطبق عليهم الأخشبين [1].

فقال النبى ﷺ : «**بل أرجو أنْ يُخرج الله من أصلابهم مَنْ يعبد الله وحده ، ولا يشرك به شيئًا**» .

فالرسول ﷺ لا يُبقى على هؤلاء فقط ، ولكنه يحرص أيضًا على الأجيال القادمة ، وقد كان ، وخرج من أولاد كفار قريش صناديد وأبطال وجنود دعوة وشهداء .

فكان رسول الله ﷺ يحزن عندما لا يذوق أحد حلاوة الإيمان.

فالقرآن يُبيّن حِرْصه ﷺ أنْ يؤمن الناسُ جميعًا ، وأنْ يذوقوا حلاوة اللقاء بربهم ، واتباع منهج الله ، وحلاوة التشريع الذى يُسعدهم ويُسعِد كل مَلَكاتهم .

فإذا ما جاءتْ المسائل على غير ما يحب رسول الله ﷺ ، فها هو ذا قول الله سبحانه:

﴿ وَلَا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ .. (١٧٦) ﴾ [آل عمران]

وهذا دليل على أن الله يريد أن يُبلّغ البشر ؛ أيها الناس ، إن من فَرْط حب الرسول لكم أنه يحزن من أجل عصيانكم ، وأنا الذى أقول له : لا تحزن.

والرسول ﷺ رحيم بالأمة كلها ، كما يقول القرآن :

---

(١) الأخشبان: الجبلان المطيفان بمكة، وهما : أبو قبيس والأحمر. والأخشب : كل جبل خشن غليظ. [لسان العرب ـ مادة : خشب].

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ (١٠٧) ﴾ [الأنبياء]

ويكفيه موقفه ﷺ يوم القيامة ، حين تذهب كل أمة إلى رسولها ليردَّها ، فتأتى الأمم إلى رسول الله ﷺ فيُكرمه الله بقبول شفاعته حتى يُعجّل الله بالفَصْل والحساب.

وهذه رحمة للعالمين ؛ لأنهم من هَول الموقف يتمنّون الانصراف ، ولو إلى النار.

فالرسول ﷺ لم يكن رحمة لمن أُرْسِل إليهم فقط ، ولكنه رحمة للعالمين جميعهم ، وأول هذه الرحمة إعلانه أن البشر كلهم سواء ، وأنه بشر مثلنا يُوحى إليه ، وأن إلهنا إله واحد.

وما دام ليس لنا إلا إله واحد فلن نخشى أحدًا ، أو نعبد قويًا ، أو ذا سلطان ، فالله تعالى أرسل رسوله رحمةً للعالمين ، وحتى ينال الناس هذه الرحمة لابُدَّ أن يؤمنوا بالله ويتبعوا منهجه.

فالحق سبحانه يعلم انشغال سيدنا رسول الله ﷺ بأمته ، وبرحمته بهم ، فقال له الله ـ لِيُريح عواطفه ومواجيده ـ ما ورد هنا فى الحديث القدسى الذى نحن بصدده :

«إِنَّا سَنُرْضِيكَ فى أُمتِك ، ولاَ نَسُوؤُكَ »

وذلك أن رسول الله ﷺ كان يتلو قول الله عز وجل فى إبراهيم عليه السلام :

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الأَصْنَامَ

(٣٥) رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيراً مِّنَ النَّاسِ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٣٦) ﴾ [إبراهيم]

وكذلك قول الله عز وجل فى عيسى عليه السلام : ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١١٨) ﴾ [المائدة]

فرفع رسول الله ﷺ يديه ، وقال :«اللهم أمتى أمتى» وبكى ﷺ .

فقال الله عز وجل: يا جبريل اذهب إلى محمد - وربك أعلم - فَسَلْهُ : ما يُبكيك؟

فأتاه جبريل - عليه السلام - فسأله ، فأخبره رسول الله ﷺ بما قال ، وهو أعلم.

فقال الله : «يا جبريل ، اذهب إلى محمد فَقُلْ : «إنَّا سَنُرضِيكَ فى أُمتِك ، ولا نَسُوؤكَ »».

والحق سبحانه يقول فى قرآنه:

﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ (٥) ﴾ [الضحى]

وقد رُوى (١) عن الإمام على رضي الله عنه أنه قال لأهل العراق: إنكم تقولون : إن أَرْجَى (٢) آية فى كتاب الله تعالى :

---

(١) أورد السيوطى هذا الأثر فى الدر المنثور فى التفسير بالمأثور (٨ / ٥٤٣) ، وعزاه لابن المنذر وابن مردويه وأبى نعيم فى الحلية.

(٢) الرجاء من الأمل نقيض اليأس. وأرجى: صيغة مبالغة على وزن أفعل بمعنى أكثر رجاء وأملاً وإطماعًا فى رحمة الله . [وانظر : لسان العرب - مادة : رجو].

﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا [1] مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ ﴾ [الزمر]

قالوا: إنَّا نقول ذلك.

قال: ولكنّا - أهل البيت ـ نقول : إن أَرْجى آية فى كتاب الله قوله تعالى:

﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ﴿٥﴾ ﴾ [الضحى]

وهى الشفاعة » [2]

ولم يَقُلْ سبحانه : يعطيك ربك. بل قال : (ولسوف يعطيك) لترى عطاء الحق مستمرًا.

وقد قال النبى ﷺ عند نزول هذه الآية:

«إذًا ، لا أرضى وواحد من أمتى فى النار». [3]

---

(١) القنوط : اليأس . وفى التهذيب : اليأس من الخير. [لسان العرب ـ مادة : قنط].

(٢) وقد أخرج ابن المنذر وابن مردويه وأبو نعيم فى الحلية من طريق حرب بن شريح رضي الله عنه قال : قلت لأبى جعفر محمد بن على بن الحسين : أرأيت هذه الشفاعة التى يتحدث عنها أهل العراق، أحق هى؟ قال: إى والله ، حدثنى عمى محمد بن الحنفية عن على أن رسول الله ﷺ قال: «أشفع لأمتى حتى يناديني ربى : أرضيت يا محمد ؟ فأقول : نعم ، يا رب رضيت » . قاله السيوطى فى الدر المنثور (٨ / ٥٤٣) .

(٣) أخرج الخطيب فى «تلخيص المتشابه» عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : لا يرضى محمد ، واحد من أمته فى النار.

وأخرج البيهقى فى شعب الإيمان عن ابن عباس أيضًا أنه قال : رضاه أن تدخل أمته الجنة كلهم.

وقال ﷺ أيضًا :

«لكُلِّ نبيٍّ دعوة مستجابة ، فتعجَّل كل نبيّ دعوته ، وإنِّى اختبأتُ دعوتى شفاعةً لأمتى يوم القيامة» (١) .

وهكذا نرى شُغل رسول الله ﷺ بأمته كأمر واضح موجود فى بُؤْرة شعوره ﷺ .

إذن : فقول الله :

﴿ وَلَا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِى الْكُفْرِ .. (١٧٦) ﴾ [آل عمران]

هو توضيح من الله لرسوله ﷺ بأنهم لم يسارعوا فى الكفر تقصيراً منك ، فأنت قد أديتَ واجبك.

ويؤكد الحق سبحانه هذا بقوله تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ .. (٤١) ﴾ [المائدة]

فإياك أنْ تحزنَ ؛ لأنِّى معك ، فلن ينالك شَرُّ خُصومك ، ولا يمكن أنْ أختارك رسولاً وأخذلك ، إنهم لن ينالوا منك شيئًا.

وقد يكون حُزْن النبى ﷺ حُزْنًا من لَوْن آخر ، اسمه الحزن المتسامى ، الذى قال فيه الحق سبحانه:

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (١٩٩) من حديث أبى هريرة رضي الله عنه وتمامه: « فهى نائلة إن شاء الله من مات من أمتى لا يشرك بالله شيئًا ».

﴿ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾ ﴾ [الكهف]

فإذا كان حزنك بسبب الخوف على المنهج منهم ، فالحق ينصره ولن يُمكِّنهم منه.

وأما إذا كان خوفًا عليهم ، فلا ؛ لأنه سبحانه خلق الإنسان مُخْتارًا غير مقهور على القيام بتعاليم المنهج ، وسبحانه يحب أنْ يعرف مَنْ يأتيه حُبّاً وكرامة.

فإياك أنْ تحزن لحرصك على أنْ يؤمنوا ؛ لأن الحق سبحانه يقدر أن يُنزِل عليهم آية تجعل رقابهم خاضعة ، ولكن الرب لا يريد رقابًا تخضع ، وإنما يريد قلوبًا تخشع.

ولذلك يقول تعالى :

﴿ لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلاَّ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ ﴿٤﴾ ﴾ [الشعراء]

فلو أراد الله أن يُخضِعهم لمنهجه قَهْرًا ، لا يستطيع أحد أن يشذَّ عن طاعته ، فهو سبحانه يريد من الإنس والجن عبادة المحبوبية ، ولذلك خلقنا ولنا اختيار فى أنْ نأتيه أو لا نأتيه ، فى أن نطيعه أو نعصيه ، فى أنْ نؤمن به أو لا نؤمن به.

فإذا كنتَ تحب الله فأنت تأتيه عن اختيار ، تتنازل عما يغضبه حبّاً فيه ، فإذا تخليتَ عن اختيارك إلى مرادات الله فى منهجه تكون قد حققتَ عبادة المحبوبية لله تبارك وتعالى.

نحن نريد أن ينبع الإيمان من القلب ، فالله لا يريد أعناقًا ، ولو كان يريد أعناقًا لَمَا استطاع أحدٌ أنْ يخرج عن قَدَره. وكان باستطاعته سبحانه أن يخلق البشر على هيئة غير قابلة للمعصية ، كما خلق الملائكة.

والحق سبحانه يُبيِّن لنا شُغل رسول الله ﷺ بأمته ، وأنه يحب أن يكونوا جميعًا مؤمنين ملتزمين مطيعين ، فيوضح له سبحانه : أَرِحْ نفسك ، فعليك البلاغ فقط .

وهكذا يُخفف الله مهمة الرسول ﷺ فيقول :

﴿ مَن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴿٨٠﴾ ﴾

[النساء]

فلا تُجهِد نفسك ، وتظن أننا أرسلناك إليهم لترغمهم على أن يؤمنوا ، فتكلف نفسك أمرًا ما كلَّفك الله به ، وتقتل نفسك حزنًا وغَمّاً وهَمّاً أنهم لم يؤمنوا.

فيقول تعالى:

﴿ لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ ﴿٢٧٢﴾ ﴾ [البقرة]

ويقول سبحانه :

﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾ ﴾ [الغاشية]

ويقول فى آية أخرى :

﴿ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ .. ﴿٤٥﴾ ﴾ [ق]

أى: ليس لك أنْ تُجبرهم على أنْ يطيعوا ، فالإجبار يتنافى مع التكليف ، ويتنافى مع دخول الإيمان طواعية ، ويتنافى مع الاختيار.

ونجد أغلب عتابات الله لرسول الله ، لا لأنه خالف ، ولكن لأنه حمّل نفسه فوق ما تفرضه عليه الرسالة ، مثل مَنْ يثيرون قصة ابن أم مكتوم [1]، فيقولون : النبى أخطأ ، ولذلك قرَّعه الله ووبّخه.

نقول لهم : كان الرسول ﷺ يرغب أن يؤمن به صناديد قريش العتاة الكافرون ، وجاءه ابن أم مكتوم مؤمنًا ويريد أن يستفهم ، وكان من الأسهل أن يتعرض لابن أم مكتوم ولا يتعرض للصناديد الذين يخالفونه.

لكن النبى ﷺ ترك السهل وذهب للصَّعب ، فكأنه سبحانه يتساءل: لماذا أتعبتَ نفسك؟

﴿ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ۝٧ ﴾ [عبس]

أى : ما الذى يجعلك تتعب ؟إذن : فهو يلومه لصالحه لا لأنه خالف.

فكأن الحق سبحانه وتعالى حينما يقول لرسوله ﷺ :

﴿ فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۝٨٠ ﴾ [النساء]

إنما قاله ليخفِّف عن الرسول ﷺ ، وليأمره أنْ يُشفِق على نفسه ، وألاَّ يقتلها بالحزن عليهم لعنادهم وعدم إيمانهم.

والحزن هو خروج النفْس من سياق انبساطها ، فالإنسان يكون غاية فى الاستقامة والسرور عندما يكون كل جهاز من أجهزته يُؤدِّى مهمته ، فإن حدث

(١)هو : عمرو بن أم مكتوم القرشى، ويقال اسمه عبدالله ، وعمرو أكثر، وهو ابن قيس بن زائدة ابن الأصم. واسم أمه أم مكتوم عاتكة بنت عبد الله. أسلم قديمًا بمكة وكان من المهاجرين الأولين ، قدم المدينة قبل أن يهاجر النبى ﷺ . استخلفه رسول الله ﷺ ثلاث عشرة مرة. [الإصابة فى تمييز الصحابة ٤ / ٢٨٤].

شيء يُخِلُّ بعمل أحد الأجهزة فذلك يُورِث الحزن ، أو يكون الحزن انفعالاً لمجيء وحصول أمر غير مطلوب للنفس.

لقد كان مطلب الرسول ﷺ أن يؤمن كل الذين استمعوا إلى البلاغ عنه ، لكن البعض قاوم ، والبعض اتهم الرسول بالسحر أو الجنون أو قَوْل الشعر (١) .

وها هو ذا الحق سبحانه يُسلّى(٢) رسوله ﷺ ، فيقول:

﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ(٣) (٣٣) ﴾ [الأنعام]

أى : إنك يا محمد لا بد لك أن تعلم أن أقوالهم هذه ليست متعلقة بك ، لأنك - بإجماع الآراء عندهم ـ أنت الصادق الأمين.

وهم إنما يُكذِّبون بآياتى التى أرسلتها معك إليهم ، لأن ماضيك معهم هو الصدق والأمانة ، بدليل أن الكافر منهم كان لا يأمن أحدًا على شيء من أمواله ونفائسه إلا رسول الله ﷺ ، والإنسان لا يغشُّ نفسه فيما يخصُّه.

فكأن الله يريد أن يتحمل عن رسوله ، لأن مَنْ يُوجِّه إهانة للرسول إنما يُوجِّهها للمرسِل له ، وهو الله جَلَّتْ قدرته.

---

(١) يقول تعالى : ﴿ وَعَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ (٤) ﴾ [ص].
ويقول أيضًا: ﴿ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ (٣٦) ﴾ [الصافات]
ولذلك يقول الحق سبحانه : ﴿كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلاَّ قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ (٥٢) ﴾ [الذاريات]

(٢) يُقال: سَلَّانى من هَمِّى تسلية وأسلانى. أى: كشفه عنى . وانسلى عنى الهم أى : انكشف. {لسان العرب ـ مادة : سلا}.

(٣) الجحود : الإنكار مع العلم . {اللسان ـ مادة: جحد}.

وسبحانه يُبيِّن لنا أن رسوله ﷺ كان حريصًا أشد ما يكون الحرص على أنْ تستجيب أمته لداعي الحق، حتى يتأكد لدى المؤمنين قَوْل الحق سبحانه وتعالى في رسوله ﷺ:

﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾ [التوبة]

ولا معنى للحرص إلا أن رسول الله ﷺ يحب ألاَّ يُفلت أحد من قومه عن منهجه وعن دينه، ومعنى الحرص: أن يحوطكم بالرعاية، حتى لا تقعوا في المشقة الأكبر.

وهو ﷺ رءوف رحيم.

والرأفة والرحمة قد تلتقيان في المعنى العام، ولكن هناك أمورًا تسلب مَضَرَّة، وأمورًا تجلبُ منافِع.

فالرأفة: هي سَلْب ما يَضُر من الابتلاء والمشقة.

والرحمة: تجلب ما ينفع من النعيم والارتقاء.

وحَسْبكم من هاتين الصفتين أن الله سبحانه وتعالى وصف رسوله بهذين الوصفين (١).

وقد ثبت أنه سبحانه قد وصف نفسه بقوله سبحانه:

﴿إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾﴾ [النحل]

(١) أورد القرطبي في تفسيره (٤/ ٣٢٢٨) ـ طبعة دار الغد ـ قول الحسن بن الفضل: لم يجمع الله لأحد من الأنبياء اسمين من أسمائه إلا للنبي محمد ﷺ، فإنه قال: ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾ [التوبة] وقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٥﴾﴾ [الحج].

إذن : فالرسول ﷺ لا يسلك بما عنده ، بل يسلك برأفة مُستمدة من رأفة العليِّ الأعلى ، وكذلك رحمته ﷺ مُستمدة من رحمة العليِّ الأعلى .

ورسول الله ﷺ حريص على أنْ يشمل الله أمته بمغفرته ورحمته ، وألاَّ يسوؤه فيها ، لذلك أخبره المولى عز وجل بأنه سوف يُرضيه فى أمته.

وقد أشفق رسول الله ﷺ على أمته من موقف يشهد فيه عليهم ضمن مَنْ سيشهد عليهم يوم الحشر ، وذلك مصداقًا لقول الحق سبحانه :

﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾ ﴾

[النساء]

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ :

«اقرأ علىّ القرآن» (١)

فقلت : يا رسول الله ، أقرأ عليك وعليك أُنزل؟

قال : نعم ، إنِّى أُحِب أنْ أسمعه من غيرى.

فقرأتُ سورة النساء حتى أتيت إلى هذه الآية :

﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾ ﴾

[النساء]

فقال ﷺ : «حَسْبك ، فإذَا عيناه تَذْرفانِ الدموعَ».

فإذا كان الشهيد بكى من وَقْع الآية ، فكيف يكون حال المشهود عليه؟

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (٨٠٠) من حديث عبدالله بن مسعود رضي الله عنه ، والترمذى فى سننه (٣٠٢٥) ، وأحمد فى مسنده (١ / ٣٨٠ ، ٤٣٣) .

الشهيد الذى سيشهد بكى من الآية ، نعم ، لأن قلبه ﷺ قد امتلأ رحمةً بأمته ، ولذلك عرض رب العزة سبحانه على رسوله أنْ يتولَّى أمر أمته.

وانظر إلى العظمة المحمدية والفَهْم عن الله والفِطْنة ، فقال ﷺ : لا ، يا رب ، أنت أرحم بهم مِنِّى.

وكأنه ﷺ يقول للخالق سبحانه : أتنقل مسألتهم فى يدى وأنا أخوهم ، إنما أنت ربى وربهم ، فهل أكون أنا أرحم بهم منك؟

لقد كان من المُتصوَّر أن يقول رسول الله : نعم أعطنى أمر أمتى ، لكنه ﷺ قال : يا رب ، أنت أرحم بهم مِنِّى.

فكيف يكون رَدّ الربِّ عليه؟

قال سبحانه : فلا أُخْزيك فيهم أبدًا.